عبد الرحمن منيف :

عشت كالطير المعلق
بين السماء والأرض

obeikandl.com

obeikandl.com

كنت في زيارة إلى سوريا عام ١٩٩٦ ضمن وفد صحفي مرافقا لنواب من مجلس الشوري المصري ،ورغم الطابع السياسي والشعبي للزيارة،إلا أن أجندة اهتماماتي انصرفت إلى عناوين أخري، تتمثل في كيفية لقاء كبار الأدباء والفنانين والسوريين الذين نحبهم في مصر.

سألت عن الكاتب المسرحي العظيم الراحل سعد الله ونوس الذي كان يواجه مرض السرطان،فوجدته أسير جلسة علاج كيماوي ،وسألت عن الشاعر العراقي الكبير مظفر النواب المقيم في دمشق ،والشاعر ممدوح عدوان ،والروائي الكبير حنا مينا ، وكان لكل منهم ظروفه الخاصة التي أحالت بيني وبين لقائهم ،وذهبت إلى نقابة الفنانين أملا في لقاء المطرب الكبير صباح فخري و تصادف وجوده خارج سوريا .

وبينما أنا على شعور بخيبة الأمل لفشل أي لقاء مع هؤلاء، سألني صديقي السوري أحمد مظهر سعدو مراسل جريدة العربي لسان حال الحزب الناصري التي كنت أعمل فيها وقتئذ :

ما رأيك في لقاء مع عبد الرحمن منيف ؟

وبعد يومين كنت في منزل مبدعنا العظيم بضاحية المزة بدمشق ،وقبل اللقاء استدعيت الكثير عن منيف وحالته الروائية والسياسية ،فهو كمبدع عربي كبير،عاش حياة من يتأملها أظن أنه سيجد ظلها في قول الشاعر الكبير محمود درويش في قصيدة «أحمد العربي»:

«وأعد أضلاعي فيهرب من يدي بردي

وتتركني ضفاف النيل مبتعدا

وأبحث عن حدود أصابعي

فأري العواصم كلها زبدا».

انتقل عبد الرحمن منيف من عاصمة عربية وعالمية إلى أخري ،بأوامر من السلطات، لأنه إنسان يفكر في مصير أمته،ويهتم بقضاياها ،ويدافع حقوق الإنسان العربي في الديمقراطية والعدالة الاجتماعية ،وكتب أعمالا روائية متميزة ،جاءت في مجملها في سياق عصر سجل تفوقا واضحا للرواية العربية منذ أن بدأت في القرن العشرين طبقا لآراء الكثيرين ،وأكدت ازدهارها بالمقارنة مع الألوان الأدبية الأخرى ،حتى درج البعض ومنهم الشاعر محمود درويش إلى اعتبار «العصر الذي نعيشه، هو عصر الرواية بامتياز».

جاء هذا الازدهار أو الامتياز، من بطن الانكسارات المتتالية التي عاشتها أجيال عربية متعاقبة ، والأسباب تبدأ من شرخ الوجدان العربي بفعل هزائمنا المتتالية ، والتي أعادت المبدع إلى ذاته ليعيد ترتيبها،ثم يكتب رسالته ويوجهها إلى الآخرين، وتنتهي عند هزيمة الأيد يولوجيات، والتي أسهمت بدورها في إنكسارت إضافية حادة لكل الحالمين بوطن أفضل ،وإنسان أجمل بفضل هذه الأيديولوجيا .

أسهمت تلك العوامل في تجل واسع للرواية والروائيين، خاصة منذ النصف الثاني من القرن العشرين ،فكتبوا عن الواقع العربي وأزمته ،والإنسان العربي وهمومه،لتأتي الصورة بأعماق يائسة عن الإنسان والمجتمع والقيم وكل شئ،واختار كل روائي مهموم رافده الروائي، وطريقة سير المياه فيه. وقف عبد الرحمن منيف بين هؤلاء شاهدا على كل المراحل الفارقة في تاريخنا العربي منذ مولده عام ١٩٣٤،كان صبيا وقت ضياع فلسطين في نكبة ١٩٤٨ ،وشابا فتيا في انتصار مصر \ عبد الناصر عام ١٩٥٦ علي العدوان الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وإسرائيل)،ثم انفجار الثورات العربية طلبا للاستقلال من الاستعمار وتأميم البترول ،و إعلاء شعارات النضال من أجل عودة فلسطين بالبندقية ،ثم هزيمة ٥ يونية ١٩٦٧ ،ومع حلول السبعينات ورغم انتصار أكتوبر ١٩٧٣ ،بدأ الزلزال الكبير بالصلح مع

إسرائيل ،والذي بدأته «مصر السادات» باتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨.

عاش منيف كل هذه الأحداث وخرج منها بقناعة عبر عنها عام ١٩٨٣ بقوله: «خلال الثلاثين الأخيرة لا أتصور أن هناك إنسانا عربيا ظافرا ،كلهم خائبون دون استثناء ».

ويمكن القول : إن منيف تواصل مع كل هذه القضايا عبر مرحلتين ،وأعطي كل مرحلة لونا مختلفا من العطاء ،يقول عن الأولي : «كانت الظروف التي كنت أعيش فيها كما هو حال الكثير من أبناء جيلي ،تستغرقنا في العمل السياسي والعمل العام ، وبالتالي كان الوقت والجهد منصرفين نحو ذلك ،ولم يكن التفكير أو الظروف تتيح لي ممارسة الأدب في أي شكل من أشكاله إلى أن كان الافتراق مع العمل السياسي المباشر».

وعن المرحلة الثانية يقول :« كان من الممكن ألا أكتب الرواية أبدا، لو استمريت في العمل السياسي ،وعندما اكتشفت أنني أستطيع التواصل مع الآخرين ،وأن أعبر عن نفسي من خلال أداة جديدة لم أتردد،خاصة أن روايتي الأولي «الأشجار واغتيال مرزوق» ،عندما أنجزتها ووصلت إلى يد القراء ،وجدت نوعا من الاهتمام والتعاطف».

بدأ منيف تعاطيه لعملية الإبداع الروائي كمرحلة تالية لتعاطيه العمل السياسي المباشر من خلال التنظيمات السرية اليسارية والبعثية ،واقتحم هذا الإبداع بخلفية وافرة للسياسة والسياسيين في تعاملهم مع قضايا الوطن ،وأخرجته هذه التجربة من زمرة هؤلاء الذين قال عنهم المفكر الثوري الروسي في القرن الـ ١٩ بيلينسكي: «عندما يكون هؤلاء المفكرون دون خبرة بمشاكل الحكم يصبحون سكارى بالأيديو لوجية ».

تداخل السياسي بالإبداعي عند منيف دون أن يكون هناك سكر بالأيد يولوجية

في معناها المباشر،والتي قد تحول المبدع إلى صوت صارخ، وتقرب أعماله من المنشور السياسي،ومن هذه الخلفية أنتج رو يات تتلاحم خطوطها وأحداثها ،حتي تلتقي في نقطة واحدة واضحة وضوح الشمس ،وهي الوطن وهمومه،الذي يتسع عنده ليخرج من الحدود الجغرافية لإقليم عربي معين إلى كل الوطن من محيطه إلى خليجه ..فالوطن عند منيف جملة من التوحد في القضايا والتحديات والمصير، حتي في السجون وأساليب القمع .

في «الأشجار واغتيال مرزوق»بنية روائية شفافة ،تتعدد فيها الدلائل على استحالة الحوار في مجتمع القمع ،وليس شرطا أن يأتي من الدولة وأدواتها ،بل يأتي أحيانا من بشر يمارسون علاقات تعطيهم ما يرونه حق وتسحبه من آخرين،فالعامل الذي فقد جذره حين فقد أرضه وأشجاره ،يصطدم بالناس في كل مرة يحترف فيها حرفة جديدة،فيهجرها إلى حرفة أخري،وكأن هذا العامل هو نموذج التفريط الذي لا يرحمه أحد بسبب تفريطه فيظل يعيش بعاره إلى نهاية العمر .

أما منصور عبد السلام المثقف الذي يطل علينا من أحداث الرواية،هو الابن الشرعي لمأساة المثقفين العرب في واقعهم المعاكس ،خاصة هؤلاء الذين يقضون أوقاتهم في دراسة التاريخ والتحول الاجتماعي ،وحين يتطلعون إلى تجاوز الدراسة ، والمشاركة في صنع التاريخ باختبار ما تعلموه على أرض الواقع ،تدفعهم آلة القمع إلى غياهب الليل .

لم يتحمل منصور عبد السلام ،فأطلق النار على مرآته التي تظهر وظيفتها في حياتنا كأداة كاشفة لحقيقتنا، حين نبحث عن لحظة صدق،انتقل منصور بعدها إلى مستشفي المجانين،لا يفارق ذاكرته لحظة واحدة أنه شارك في جيش بلاده جندياً فور عودته من دراسته في أوربا،وانهزم الجيش أمام الأعداء،ولم تكن لحظة إطلاق النار منه إلا لحظة اختيار يائس من انفراج الحال في وطنه ،طالما ظل محكوما بنفس

الأدوات التي أوصلته إلى الهزيمة.

تستمر علاقة السياسي بالإبداعي عند منيف في رواية «شرق المتوسط» ،وهي الرواية التي تبرز بوضوح موضوع القهر في آلية تبدو وكأنها واحدة في كل رقعة عربية ،وتتعامل مع الإنسان ليس بوصفه إنسانا وإنما كيان مباح فيه تجريب كل أدوات القمع .

كانت «شرق المتوسط »،واحدة من الروايات المبكرة عربيا التي أطلقت صرخة في الأوساط الشعبية والسياسية عن شيء اسمه الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ، حيث شملت الرواية بعضا من مواده ،وأظهر هذا الجانب أن الواقع العربي يقف عند نقطة فاصلة في تاريخه ،وعلي الجميع أن ينظر إليها وهي،إذا كان ما مضي قد حمل ما حمل من أخطاء في الممارسة الديمقراطية باسم مجابهة الآخر ،فإن المستقبل لا بديل فيه عن ديمقراطية أوسع وأرحب ،أبسط قواعدها احترام الإنسان .

ومن قماشة مجتمع« شرق المتوسط»الذي تتحكم فيه أدوات القمع يطل علينا رجب المثقف الذي قضي خمس سنوات داخل السجن ،وتحول جسده إلى موضع تجريب لكل أدوات التعذيب ،ويصطدم بصره بالسراديب المظلمة ،وعقله بتفتيش المخبرين ورجال الأمن ،وكلما أصر على أن يفهم،ازداد الإصرار على إيقاعه في السجن ،حتى يضطر إلى التسليم ،ويسقط جسده ،ويتحول إلى جاسوس على زملائه من المناضلين ،وحين يحاول استعادة نفسه بعد خروجه من السجن ،يقرر الرحيل إلى الغرب متصورا أنه يستطيع فضح القهر الذي يحدث في بلاده أمام منظمة دولية هي الصليب الأحمر ،و أنه بذلك يمكنه استنفار الرأي العام ضد الجلادين زبانية التعذيب الذين يعششون في كل أركان بلاده .

يفعل رجب ما يراه فاضحا للقهر في بلاده ، لكن النظام يتفنن في نفس الوقت في الضغط على أهله،وكأنهم يضغطون على ظله ،وبفعل التهديد المتواصل ،

والضغط الخانق على شقيقته ،وتأكده هو من عبث محاولته يعود إلى وطنه.

عاد لكنه كان بقايا إنسان لا يستطيع أن يفعل شيئا،ومع ذلك تواصلت ضده دورة التهديد الأمني ،وفي النهاية لم يجد فرصة للخلاص إلا بإطلاق النار على نفسه ، ليموت منتحرا دون أن يحقق أحلامه في تغيير العالم الذي يراه،عالم يحترم حقوق الإنسان

ينتحر رجب في «شرق المتوسط»،ويذهب منصور في «الأشجار واغتيال مرزوق» إلى مستشفي الأمراض العقلية،بعد أن يقدم الاثنان مشاهدا من تجارب المثقف العربي ،المثقف الذي يعيش عمق المحنة ،ثم يتم بتر ذراعه لو بدأ السؤال من أجل أن يفهم ،ويدرس حتى يشارك ،ويصطدم ليعري الآخرين الذين يستمدون قوتهم فقط من كرابيج الزنازين

في رواية «سباق المسافات الطويلة»،رؤية قد تدعونا إلى الإحباط ،لأن شعوب الشرق لا تعرف كيف تحافظ على ما تنجزه حين تقدم في لحظة تاريخية على فعل التحرر الذي يحافظ لها على ثرواتها.

تطل الرواية على شعب أمسك بثروته،بتأميم بترولـه من يد الشركات الأجنبية،فتنتفض أمريكا وبريطانيا بوصفهما قوتين استعماريتين لاسترداد هذه الثروة بكل الوسائل.

كان إعلان الزعيم الإيراني محمد مصدق تأميم بترول بلاده مطلع الخمسينات في القرن الماضي،هو قبلة الحدث التاريخي الذي ألهم منيف هذه الرواية، زلزل الحدث وقتها الدنيا لتمرده على ثوابت طويلة، أهمها أن الشرق ينتج ثرواته الطبيعية لكن الغرب هو الذي يضع يده عليها ،وأعطي الحدث نبوءة مبكرة على ما ستدخله المنطقة كلها من تحديات أمام أمريكا بسبب البترول .

وتمسك الرواية بالمؤامرات التي تحاك في الخارج، وتنفيذها بواسطة أذناب

الداخل،وتكاتف أجهزة المخابرات لرسم المخطط الذي سيؤدي إلى إجهاض خطوة التأميم،وعودة البلاد إلى حظيرة نهب الاستعمار من جديد .

وبرغم أن حدث التأميم هو الملهم لمنيف في« سباق المسافات الطويلة» ،إلا أننا لا نجد في الرواية ذكرا لأماكن الشرق ،سوي اسم بيروت ، باعتبارها مكان «الشرق »الذي كانت أجهزة المخابرات العالمية تنشط وتتلاقي فيها لسنوات طويلة في النصف الثاني من القرن العشرين، لتدبير الدسائس والانقلابات.

«سباق المسافات الطويلة»،هي واحدة مما يمكن تعريفها بالروايات التي جسدت « انكسار الحلم التاريخي »، فهي رواية تكشف حقيقتنا المؤلمة، ومن قماشة أحداثها الروائية ،نستطيع تفصيل وقائع ،النهب ،والهزيمة، والمقاومة، والخضوع ،في أي بقعة عربية امتلكت البترول، وحاولت من خلاله النهوض لكنه لم تفلح،كما أنها الرواية التي يستخلص منها منيف قناعته بأن: « الذهب الأسود..هذه الثروة المشئومة..لعب الدور الأبرز والأهم في استعمار الكثير في بلدان الشرق».

أما في روايته «قصة حب مجوسية»يستخلص منيف فيها ، أن الإنسان الذي لا يعرف كيف يحب ، لا يعرف كيف يعمل في الشؤون العامة ،والمضطهد سياسيا هو نفسه المضطهد في حقوقه وشؤونه الخاصة .

وفي «مدن الملح»،يبدو منيف وكأنه« الجبرتي روائيا»،فعبر خمسة أجزاء يعطينا صورة روائية عن ظاهرة النفط العربي منذ تكوينها وحتى تحولها إلى سلوك يومي،يمارسه الإنسان العربي ليس في منابعها وفقط ،وإنما في كل أرجاء الوطن العربي ،كما أنها تكشف مجتمع البادية في بكارته الأولي ،ثم مغادرة هذا المجتمع لكل موروثاته الاجتماعية استسلاما لحياة جديدة ،يمتزج فيها كل محاولات الأجنبي المستمرة في السعي إلى السيطرة على الوجدان العربي بكل الأساليب الممكنة والتي تبدو جديدة على البدو. وظهرت معها نشأة جديدة للمجتمع ،حيث تراجعت

مكانة القبيلة ،وتحول الرعاة إلى عمال ،وظهر الوسطاء في التجارة ،وانزوي من رفض كل هذه التحولات ،وظل متمسكا بنمطه الحياتي القديم ،وزادت قبضة الحكومة المركزية .

من قلب هذه التحولات يأتي أيضا من يرفض استغلال الأجنبي«الأمريكان» لأرضه بثروتها ،وتجسده الرواية في شخص «متعب الهزال»،المعبر عن حالة الرفض والمقاومة ،والذي يتحول لدي الناس إلى رمز للمجابهة ،وحين يختفي لا يعني ذلك للأمريكان أنه انتهي ،بل هم يرون فيه قيمة تغلغلت في وجدان الناس ،وتلك القيمة وحدها نبع لا يستطيع أحد تجفيفه

تتعدد النماذج الروائية عند منيف ؛ مثل«حين تركنا الجسر »و«عالم بلا خرائط»،لتنطوي في مجملها على إظهر سير عديدة تشمل الانقلابات السياسية والمذهبية ،و التمرد على التنظيمات السياسية ،وكأنه يقرأ نفسه ،وتشمل أيضا حالة المثقف مع ذاته ووطنه، وخيبته فيهما معا،وقهر الأنظمة التي نتذوق بسببها الهزيمة في أي مجابهة تقودها ، وفي الإجمال يبقي انكسار الحال بفعل قصورنا الذاتي والجمعي،وبرغم ذلك فإن منيف يحذر من أن يقال : إن رواياته «سوداء أو متشائمة».

الرواية ظل منيف

في كل الأحوال تبقي الرواية هي ظل منيف ،ويبدو أبطاله الحالمون بغد أجمل وكأنهم قطعة منه،هذا ما ذهبت إليه حين قرأته ،وزاد مع طلته وهو يستقبلني على عتبات بيته مرحبا ،وتأكد حين جلست معه ساعات طويلة في منزله من الثامنة مساء وحتى منتصف الليل ،فالروائي صاحب الخيال الواسع، هو نفسه السياسي الذي اندمج في تنظيمات سياسية ثم انقلب عليها، وتركها دون رجعة، وحين استقبلني على باب منزله بترحاب بالغ ،بدا لي وجهه الأسمر المسحوب معبرا عن صلابة

حادة غير محايدة ،أما عينيه النافذتين فتنطقان بتاريخ طويل من المعاناة، وحين سرت في الطرقة المؤدية إلى حجرة الصالون ، لاحظت أعمالا فنية معلقة على الجدار ، أوحت لي بأنني أمام كاتب يهتم بالفن التشكيلي.

فور أن جلست ، وبعد عبارات الترحيب المعتادة ، سألني : حدثني عن أخبار مصر..ماذا عن الشقيقة الكبرى ؟.

انطلقت في إجاباتي ويشاركني هو في تبادل الرأي عن السياسة والسياسيين والإبداع والمبدعين ، والناقد فاروق عبد القادر(رحمه الله) الذي كان أهم جسوره إلى القارئ المصري ، سألني باهتمام كبير عن الأعمال الروائية الجديدة في مصر ، واحتلت رواية «الحب في المنفي » لبهاء طاهر والتي كانت حديثة الإصدار حيزا من الكلام مبديا إعجابه بها ،وحدثته عن رواية «مراعي القتل » للكاتب الروائي فتحي إمبابي التي سمع عنها ولم يقرأها .

وحملني سلاما إلى الكاتب الروائي جمال الغيطاني ، وفاروق عبد القادر،وسألني عن بعض السياسيين الشباب «وقتئذ»،الذي تعرف إليهم خارج مصر ومنهم حمدين صباحي، وعزازي على عزازي.

كانت الجلسة حميمية إلى درجة جعلته ينادي زوجته :«تعالي اسمعي سعيد يقول كلاما جميلا عن حبيبتنا مصر» ،وطوال فترة اللقاء من الليل الدمشقي ، كانت قضايا الأدب وهموم الثقافة محور حديثنا ، لكن هم السياسة وظل السياسي لم يغادر منيف ،وبعد انتهاء حواري وبينما أغلق جهاز الكاسيت ،صوب عينيه نحو نافذة حجرة الصالون وقال في صوت يغلبه الأسى :« حوار جميل ، لكن كنت أتمني أن يكون حديثنا عن الديمقراطية في الوطن العربي .. الوطن العربي تستنزفه ديكتاتوريات حكامه .. هل تصدق أنني أبلغ من العمر ٦٢ عاما ولا أملك بطاقة انتخابية،ولم أعطي صوتي في أي انتخابات ، أي لم أذهب إلى مقر لجنة انتخابية وتلك

واحدة من حقوقي التي تمنيتها طوال حياتي وسلبها مني هؤلاء الحكام الذين يتلذذون بقمع الإنسان العربي ».

ذكر منيف أمنيته المسروقة ،بتأثر بالغ مما دفعني للنظر إلى شعره الأبيض، وأنا أقول له :«هذا إغراء لحوار صحفي جديد أتمني إنجازه» ، فرد ضاحكا :«بعد نشر هذا الحوار».

قلت :ربما يأتي اليوم يا أستاذ عبد الرحمن الذي تتحقق فيه أمنيتك وتحصل على بطاقة انتخابية .

رد بأسي :لا أظن..لا شيء يبعث إلى الأمل .

كان هذا في نهاية جلستنا ،التي أخبرني فيها أنه سيدفع قريبا بكتاب اسمه «عروة الزمن الباهي»عن الكاتب الموريتاني الباهي محمد ،قائلا :« شارك الباهي في معظم الثورات العربية في الخمسينات والستينات (القرن العشرين) ،أبرزها ثورة الجزائر ،وعاش في باريس شيخا للصعاليك،ولهذا شملت تسمية 'لكتاب اسم عروة نسبة إلى عروة ابن الورد شيخ الصعاليك والشاعر العربي القديم ».

أضاف منيف بصوت خفيض وكأنه يحدث الباهي :«كانت حياة الباهي تشبه زوربا اليوناني إلى حد كبير،كما أنه ظل جسرا بين الشرق والغرب،وكان يعد بالكثير في الرواية لكنه أجل أعمالا كثيرة متوهما أنه سيعيش ألف سنة ، لم يكتب كل الأفكار التي كان وحده يرددها ، وفي النهاية راح وراحت معه أحلامه التي كانت تسع الكرة الأرضية ».

نبهني منيف إلى أنه سيرسل لي نسخة من الكتاب للكتابة عنه، ليس لأنه من تأليفه، وإنما من أجل الباهي الذي عاش ومات في الظل ومن أجل غيره.

غادرت دمشق على اتفاق معه بأن أراسله ووعدني بالرد على أي خطاب سأكتبه، قائلا لي : « أحب هذا النوع من التواصل» ، لكني ومن باب التقصير لم أفعل ،وحين

جاء إلى القاهرة عام ١٩٩٨ في المؤتمر الأول للرواية العربية التي فاز بجائزتها وسط تقدير عام وارتياح كبير ،قابلته وأعطيته نص حواري معه الذي نشرته في مجلة القاهرة«مارس ١٩٩٧ »،وقال لي :«لماذا لم تراسلني كما اتفقنا؟»لم أجد ردا وأحلت تقصيري- كالعادة - إلى الظروف والمشاغل ،وحين تلقيت خبر وفاته شعرت، كما شعر كل جمهور الرواية والحالمين بوطن أفضل ، بخسارة فادحة،وندمت أكثر على عدم مراسلتي له، فالمؤكد أنها كانت ستضيف لمسيرتي المهنية ، وكانت ستكشف لي معرفة أكثر بأدبه وعالمه الإبداعي

مات عبد الرحمن منيف ، وبقي إبداعه الجميل،وبقي لي حواري معه الذي تعرض إلى محطات تاريخية في حياته ،وما تخللها من نفي من عاصمة إلى أخري، وكما تعرض الحوار إلى قضية علاقة المثقف بالمؤسسة السياسة، ومن مجمل أعماله تعرضنا في الحوار إلى اثنين من رواياته ،الأولي «الأشجار واغتيال مرزوق » بوصفها أول إنتاجه ، والثانية «مدن الملح » والتي جاءت في خمسة أجزاء تقتحم عالم النفط والصحراء .

* في المحطة الأولي لحواري قلت لعبد الرحمن منيف متسائلا :«عبرت الرواية العربية في سنواتها الأخيرة وبقوة عن حالة الانكسار في واقعنا العربي ،وشملت هذه الحالة تنويعات مختلفة ، فهي لم تقف عند الهزيمة السياسية العامة وإنما امتدت إلى أحوال الناس الشخصية ،فما الأسباب الحقيقية التي تقف وراء ذلك ؟

- أجاب :كانت هزيمة يونية ١٩٦٧ أول الامتحانات الكبرى التي واجهت المشروع النهضوي في المنطقة العربية ،وقبل الهزيمة كان الاعتقاد السائد هو قوة المشروع وتماسكه،وقدرته على أن يكون طريقا للإبداع ،بكل ما يعنيه ذلك من تنام في القدرة العسكرية والقدرة الاقتصادية ،وبالتالي مستوي حضاري يوحي بإمكانيات المواجهة والانتصار ،وزاد من هذا الاعتقاد كم المجابهات التي خاضتها

الأمة العربية ضد القوي الاستعمارية منذ مطلع الخمسينات ،وكانت ذروتها في مواجهة مصر للعدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ،ثم معركة الوحدة بين مصر وسوريا عام ١٩٥٨ ،فسقوط النظام الملكي في العراق، والثورة الجزائرية التي انتهت باستقلال الجزائر عام ، ١٩٦٢ ، وفشل سياسة الأحلاف التي حاولت أمريكا فرضها على المنطقة ،وأكدت كل هذه المعارك على أن الوطن يعيش ولأول مرة فترة نهوض وصعود،حتى جاءت نكسة يونية حزيران ،لنكتشف معها نوعا من الوهم كنا نعيشه،وانهار البناء في أول مواجهة حقيقية له ،وبالتالي كانت الرواية العربية صدى للتعبير عن هذه الحالة ،زاد منه تآكل المشروع النهضوي فيما بعد،وزيادة كم الهزائم العربية على أكثر من صعيد.

أضاف منيف :جاءت الرواية شاهدة على كل هذه المحن ،وأصبحت مرآة تنقل الواقع الاجتماعي والفكري ،والانهيار العربي ككل،وأنا أقطع بأن إحدى المشكلات الأساسية المطروحة علينا هي مجابهة الحقيقة بشجاعة ،ومعرفة نواقصنا لتدارسها ثم التغلب عليها ،والرواية احدي الأدوات المهمة والرئيسية في رصد هذه الحالة والتعبير عنها ،ومن الطبيعي في ظل الهزيمة النفسية العامة يأتي ابتكار المنابر المعبرة عن هذه الحالة ،لكي نوضح الواقع دون رتوش من خلالها.

*سألت :هل يمكن اعتبار البطل المنكسر الناتج عن الهزيمة والذي ساد في الراوية العربية بعد هزيمة يونية حزيران ،هو بمثابة الرد على البطل الإيجابي الذي واكب مرحلة النهوض والصعود التي سادت قبل هذه الهزيمة ؟

- أجاب :هو جزء من الحالة ،فالرواية العربية تناولت حالة التراجع والامتثال للقوي الأخرى بعد رحيل جمال عبد الناصر عام ١٩٧٠ ، وجاءت بنماذج متعددة تعبر عن ذلك ،أبرزها نموذج البطل المنكسر الذي حمل في مضمونه ردا على نموذج البطل الإيجابي الذي ساد من قبل ،وكان مصنوعا بدرجة تفتقر إلى الوجود الحقيقي

أو الحضور على الأرض ،وكان يتم اتخاذه كذريعة أو شعار بغرض التعبئة ،والحشد لمواجهة معارك التحرير ،وعندما تحولت المواجهة إلى معركة حقيقية ظهر عجز البطل الإيجابي ،بل هو غير موجود في الأصل ،وبالإشارة إلى غزارة حالة الانكسار في الرواية العربية في زمنها الأخير ،نجد جزءا كبيرا منها يعمل ضمنا من خلال الأبطال المغتربين ،أو الأبطال الذين يحملون منطقا مختلفا عما كان سائدا من قبل ، وهذا السائد كان يتمثل في البطل الوهمي الذي كان يتم تصميمه كنموذج لوضع معين،وفي اعتقادي أن القضية الآن تتجاوز البطل الإيجابي ،أو البطل السلبي ،أو البطل المنكسر إلى تصوير واقع حي يتفاعل فيه كم كبير من العوامل والأدوار بحيث نصل في المحصلة الأخيرة إلى فهم أوسع للواقع ،وفهم آلية وحركة تطور للمجتمع حتى نتجاوز كم الجوانب السلبية التي تحكمه.

القضية أكبر من كونها انكسار البطل ،هي في الحقيقة محاولة لفهم الحياة الموارة في تناقضاتها و صراعاتها واحتمالاتها،وهو ما يستدعي التركيز في بعض الأحيان على الجوانب المعتمة والسلبية لكشفها، تمهيدا لتجاوزها.

يواصل منيف:علينا أن نعرف السياق التاريخي الذي ولد فيه مفهوم البطل الإيجابي ،وأتصور أنه مفهوم تولد مع قيادة ستالين للدولة السوفيتية ،ففي مرحلة معينة كان الاعتقاد السائد عن الاشتراكية أنها بصيغتها الستالينية هي الصيغة الايجابية والمنتصرة .بل الصيغة الوحيدة التي يجب تعميمها في العالم ،واستدعي هذا الاعتقاد في الأدب عامة ،وفي الرواية خاصة التركيز على أنواع من البطولة تؤدي إلى إظهار القوة والتحدي ،والجوانب التي تدهس كل الصعاب وتتجاوزها تمهيدا للتغيير ،غير أن الواقع كان يحمل معوقات كبيرة سواء في بداية النظم الاشتراكية أوفي نظرتها وقدرتها إلى التغيير ،وفي إطار عملية التعبئة الواسعة تم اختراع ما يمكن تسميته بالبطل الايجابي لضرورة سياسية أكثر منه فهما للواقع ،ومعرفة لطبيعة

الإنسان والمشاعر الحقيقية التي يمتلكها ،وكان من شأن هؤلاء الأبطال الايجابيين أن يسلكوا موجة من الحماس ،تكون في أغلب الأحيان مؤقتة ومرهونة بمكان معين ، ومع تغيير المكان والظروف نكتشف أنهم وهم.

وإذا كان للبطل الايجابي ميزة فهي أن يكون بطلا حقيقيا ،وبطل الممكن ،وليس بطل الرغبة فقط،ولا يمكن تأييده بمبرر أن المرحلة كانت تحتاج 'ليه ، وفي النهاية هو انهار، وكان يجب أن ينهار ،كما أن التجربة السوفيتية نفسها انهارت بطريقة كانت نوعا من الاستقالة والتخلي ،فلأول مرة نري في العالم والتاريخ تجربة تنهار دون حرب أو حتى طلقة واحدة .

لم تكن المنطقة العربية بمعزل عن تلك المؤثرات،فجاء البطل الإيجابي في الرواية العربية يحمل رايات النصر الظافرة ،أو مبشرا بها في أقل الأحوال،وكما قلت سقط ذلك مع نكسة يونية حزيران ١٩٦٧ ،برغم استمرار التجربة السوفيتية حتى مطلع التسعينات (القرن الماضي)

وفي تقديري أن ما حملته الرواية بعد ذلك من مضامين تبرز حالة الانكسار العامة والخاصة أيضا،هو في حقيقته ابتكار في الصيغ التي تستهدف عملية النقد والمراجعة الشاملة حتى لا نصل إلى ما وصل إلى ماكان اسمه في يوم من الأيام الاتحاد السوفيتي

*هناك من المبدعين والمثقفين من روج للانتصار، ثم سكنه الانكسار وهذا مفهوم ، غير أن هناك من تبني الشيء ونقيضه للحاق بركب السلطة ،وهناك من عارض مشروع النهضة وقت أن كان جمال عبد الناصر المعبر عن هذا المشروع وهو في السلطة ،ثم عاد ودافع عنه بعد رحيله، فكيف تري هذا التنقل والتبدل للمواقع في سياق علاقة المثقف ليس بالسلطة وفقط وإنما مع ذاته أيضا؟

– هذا موضوع مهم ،ويمكن الإشارة فيه إلى حالات وظواهر في سياق معين ،

ثم نستخدم نفس الحالات في سياق آخر ،وأؤكد في البداية أنني لست ضد المؤسسة السياسية خاصة إذا كانت رحبة وديمقراطية ،حيث توفر بذلك المناخ الملائم لتنمية الإمكانيات ،وتخلق حالة من شأنها أن تساعد في الإبداع ،والعكس وارد أيضا ، بمعني نمو شخصيات وكفاءات في هامش معين بعيدا عن التنظيم السياسي ، وتسهم من خلال قناعتها وممارستها في تنمية القضايا المطروحة على أجندة الوطن.

وتبقي المشكلة فيما إذا كان هل يوجد مناخ ديمقراطي يساعد على الإبداع أم لا؟، وما حدث في السنوات الماضية يؤكد غياب الديمقراطية ،أو حتى وجود مجرد النقد داخل المؤسسة السياسية أو في المناخ العام ،وهو ما أدى إلى زيادة حجم التراجعات ،والنكسات المتتالية ،ثم الانهيار على أكثر من صعيد ،ومن الممكن أن نتفهم أن ظرف النهوض ربما يحمل بعضا من السلبيات يخفيها السياق العام ،لكن في حالات الانهيار والتراجع،تظهر تلك السلبيات بوضوح ومبالغة أحيانا .

وكما قلت فإن ما يحدث الآن هو عملية مراجعة شاملة تهدف وضع النقاط فوق الحروف أن صح التعبير من أجل معرفة النواقص والأخطاء ،ولكي نستفيد من دروس الماضي لابد أن نتوقف أمام بعض القضايا المهمة في مقدمتها دور ووظيفة المثقف في وطننا العربي

*في بعض الأطروحات حول هذه القضية نجد من يذهب إلى أن المثقفين هم البديل عن المؤسسة السياسية....

- أحذر من هذا الوهم الذي يجنح البعض إليه ،ويجب الالتفات إلى ذلك حتى لا تتكرر مأساة الماضي ،فعلاقة المثقف والسلطة في الماضي حملت أخطاء فادحة ، تركزت في اعتبار المثقف داعية وصوتا للمنظمة السياسية ،وغير مسموح له بأي هامش نقدي ،ولأن السياسي كان بحاجة إلى إعلامي تم توظيف المثقف في هذا الدور ،ووضعه كأداة لتحريض الناس وتعبئتهم ،وبعد الانهيار الذي ترتب على

ذلك، ساد وهم جديد وهو إمكانية معالجة الموقف ،بجعل المثقفين هم البديل للمنظمة السياسية ،وهذا وهم وخطأ فادح.

ما المطلوب في ذلك؟

مطلوب خلق نوع من الفهم المتبادل واشترك ،يسير في سياق واحد ،بأن يكون المثقف عبارة عن مساهم أساسي في عملية لتغيير والنهوض ،وذلك بالتعاون مع الآخرين ،وبالانسجام مع الخط العام لعملية النهضة ،وهو ما يستدعي إيجاد نوعا من الشراكة الجديدة بين الثقافة والسياسة من أجل الوصول إلى معادلة تعطي للمثقف دورا أساسيا ،وفي بعض الأحيان نقديا ،وتحتمله النظم السياسية ، وبالوضع نفسه يجب أن يزول من ذهن المثقف أنه البديل للنظام السياسي .

*هل هناك تجارب يمكن الإشارة إليها في هذا المجال؟

- دون تسميات هناك بعض المثقفين بدؤوا في ممارسة ما أقوله ،لكن حتى هذه اللحظة لم ترس على أرض واقعية صلبة بحيث تتحول إلى مناقشة جديدة ،وجادة تمهيدا للوصول إلى المعادلة المطلوبة ،والتي تخلق نوعا من التزاوج بين قوتين أساسيتين هما المنظمة السياسية من ناحية ،والمواكبة النقدية التي يقوم بها المثقف من ناحية أخري ،ولا يحمل كلامي هذا صيغة القطع بأن كل مثقف يجب أن يكون مسؤولا في منظمة سياسية ،كما لا يعني أن توكل المنظمة نفسها للمثقف ،المطلوب صيغة جديدة لا ينفي فيها أي من الطرفين لآخر

*في إشارتك إلى المنظمة السياسية،هل يمتد الأمر إلى المنظمات لرسمية ؟

- دون الدخول في تفاصيل ،أنا ليس لدي ثقة في نظم الحكم العربية 'لتي تمسك بقدراتنا منذ سنوات ،فهي لا تملك القدرة ،أو حتى الرغبة في التغيير ،ويبقي رهاني على المستقبل من خلال القوي السياسية والمؤسسات ،والأفكار التي تهدف إلى تغيير المجتمع ،وبمعني أوضح ،القوى الرافضة لواقع الموجود ،والتي تهيء نفسها لأن

تكون جزءا من حالة التغيير المتوقعة في المستقبل ،يجب أن تملك كل المقومات الديمقراطية ،وأن تكون صاحبة تركيبة ديمقراطية ،وهذا شرط ينتج عن توفيره التعامل الصحي لهذه القوي مع نفسها ومع الآخرين.

*إلى أي مدي يمكن الرهان على المعارضة في التصور الذي تطرحه؟

- أؤكد أن رهاني على المستقبل ،لأن قوي المعارضة المطروحة على الساحة الآن والتي تقدم نفسها كبديل محتمل هي في الحقيقة مغيبة ،وإن حاولت إثبات نفسها ، يكون وجودها نصفيًا أو جزئيًا غير مكتمل ،وبرغم ذلك مازلت أحلم بالدور الذي يتطلع الباحثون إليه عن فكرة التغيير وإرساء قيم النهضة بتحدي المصاعب ومواجهة الأخطار

*في روايتك الأولي«الأشجار واغتيال مرزوق»،كنت قد غادرت حديثا الانغماس في العمل السياسي المباشر،ألم تطاردك تجربة السياسي وأنت تكتب هذه الرواية؟

- أي روائي أو مبدع يحاول أن يستفيد من تجاربه ،لكن ما يعنيه من إبداعه هو سيرته ،والتجربة قد تضمها السيرة الذاتية كلون آخر من ألوان الكتابة ،وربما تفيد في تجسيد حالة روائية بإعطائها بعدا واقعيا ملموسا،لكن الرواية في الإجمال تتجاوز التجربة الشخصية ، أما قضيتي الرئيسية في «الأشجار واغتيال مرزوق»فهي ترضيح حالة المثقف المعزول ،المثقف الحالم لكنه عاجز عن تحقيق حلمه،وحالة العامل الذي يملك القوي الفعلية ،ورغبة التغيير والقدرة على المجابهة والتحمل ، لكنه يفتقر إلى الوعي مع نفسه والآخرين

*مع تتبع صفحات الرواية و نمو الشخصيات دراميا،نتوقع في محطات مبكرة للأحداث أن يكون هناك تلاقي أو شراكة بين الإثنين المثقف (منصور عبد السلام)والعامل (إلياس نخلة) لكن لم يحدث،فما هي الفكرة الأساسية التي كنت

تريد إيصالها من وراء ذلك؟

- سأقول لك إنني وأنا أضع شخصيات الرواية كان لدي رغبة في إيجاد نوع من الازدواج أو الشراكة بين العامل والمثقف ،أو بتعبير آخر رسم صورة تجمع في ضلع منها العامل بفنونه،وزيادة وعيه عبر علاقته مع الآخر،هذا الآخر هو المثقف الذي اعتبرته الضلع الآخر في الصورة ،والذي تكون بفعل رحلات طويلة استمرت بين الكتب ،وانتهت به إلى شخص حالم ببناء مدينة فاضلة ،وانطلقت الرواية من هذه البؤرة ،وحاولت تجسيد رؤيتي بالامتداد في الزمان والمكان بواسطة نماذج بشرية من لحم ودم ،واعترف أن النتاج كان سلبيا في النهاية،واكتشفت أن صيغة التزاوج التي أنشدها مستحيلة كما أن أي من الطرفين بمفرده لن يصل إلى نتيجة ،وسيظل بمعزل عن الطريق الصحيح ،وعن حالة التفاعل والتكامل ، ومعرفة النواقص الموجودة .

كل الأطراف مطلوب منها معرفة الواقع ورؤيته بوضوح للتعامل معه،فالواقع العربي في صورته الراهنة أوحتي عندما كتبت الرواية لا يتحمل المثقف الحالم الذي يعيش في عزلة ،كما لا يتحمل من هم على شاكلة إلياس نخلة ،فهؤلاء لابد وأن يكون لديهم الهدف ،والقدرة على الوصول إليه ليس بالمجابهة التي تحمل التحدي فقط ،وإنما بوعي وبنوع من منطق له حلقات متصلة،واتصال المثقف بالعامل يجب أن يتم على أرضية وعي متبادل بالدور المنوط بكل منهما ،وليس المطلوب أن يعطي أحدهما توكيلا للآخر ،والهزيمة التي حدثت للطرفين في نهاية الرواية كانت صرخة تنبيه وتحذير بأن الطرق المنفصلة ،أو الطرق المتصلة لن تأتي بالهدف المطلوب أن تمت في سياق غير سليم .

*هذا الكلام ومن خلال تجربتك أنت يعود بنا مرة أخري إلى قضية المبدع والمنظمات السياسية ،فهل من الأفضل له أن يتفرغ لمشروعه الإبداعي أم ينخرط في

هذه المنظمات حتى يكون هناك التكامل بين العقل والفعل ؟

- هذه قضية مهمة يتوقف الأمر فيها على طبيعة المنظمة السياسية ،ومدي تلبيتها للأفكار والحلم المزروع في عقل وقلب المواطن ،ومما لاشك فيه أن العمل السياسي عامة، والحزب السياسي خاصة، يوفر للمبدع حالة من الحيوية والحركة ،لكن يبقي سؤال..إلى أي حد تلبي المنظمة السياسية طموحات المبدع من الزاوية الفكرية ،واذا اعتبرنا أن هذا جانب ،فهناك جانب آخر يرتبط به ،ويأتي من طبيعة المناخ السقفي للمنظمة ،بمعني قدرتها على تحمل الديمقراطية والرأي الآخر،وخصوبة المناقشة والتفاعل ،وفي تقديري ومن خلال التجربة ،وإذا لم يكن كل فإن معظم المؤسسات السياسية ،أو التنظيمات سواء كانت أحزابا أو حركات ،لم تكن بمستوي الطموح المرغوب لا فكرا ولا ممارسة.

وبالتالي صار هناك نوع من تخلي المثقفين عن التنظيم السياسي ،لكن لا يزال بعضهم في منظومة العمل السياسي بشكل أو بآخر ،وتلك صيغة من الصيغ تتحدد طبقا للوضع الموجود ،وأنا لا أميل إلى وضع قواعد لها ، وإجمالا لو كان هناك مناخ ملائم كان سيساعد على حشد وخلق ظروف أفضل لعمل ايجابي أكبر يعطي نتائج أسرع ، والظرف الحالي يدفع كل أو بعض المبدعين إلى الالتفات للإبداع باقتناع أنه يعطي نتائج ذات قيمة ،ومادام الأفق في العمل السياسي المباشر مسدودا أمام المبدع، فالأفضل له التفرغ لعمله الإبداعي ،ويظل نتاج هذا أن صح التعبير دون نتائج ملموسة وقريبة لفترة،فالإبداع يصب في نهر المستقبل.

*أستاذ عبد الرحمن.. توقفنا عند أول أعمالك الروائية «الأشجار واغتيال مرزوق»،واسمح لي أن أقفز على معظم أعمالك الأخرى لأتوقف معك عند «مدن الملح».

- كما تحب .

*تجمع «مدن الملح »بأجزائها الخمسة كل خصائص الحياة في منطقة الجزيرة العربية عبر مراحل تطورها الحديثة ،وتتضمن بداخلها خبرة عالية بالأمكنة واللغة والشخصيات برغم انك بعيد عن المنطقة ،فهل كان المؤثر في ذلك هو الثقافة الشفاهية التي تختزنها منذ الطفولة ،أم كانت هناك مؤثرات أخري؟

- ذاكرة الطفولة هي ذاكرة قادرة على الامتصاص ،وعلي تكوين ظروف تبقي مع الإنسان حتى مرحلته الأخيرة ،وللبيئة والأمكنة دورا مهما أيضا تحفظه الذاكرة وتعي أهميته، غير أن هناك ما يجب الالتفات إليه في «مدن الملح »وهو أن موضوع النفط شغلني فترة طويلة كدراسة ،وظل هاجسا عندي يزيد بين الحين والآخر ، لاعتقادي انه أحد أهم العوامل التي شكلت الخارطة العربية سياسيا واقتصاديا في عصرنا الحديث،وبالتالي لابد من الاشتباك معه، وللقيام بهذا الدور كان لابد لي أن أكون مستعدا له استعدادا كبيرا ،وذلك بالمعرفة الحقيقية ،وإلا سأرتكب أخطاء كبيرة،فبحثت في كل وسائل المعرفة الخاصة عن النفط وعلومه ،وكل ما يتعلق به من ممارسة واحتكاك وخيال

*معني ذلك أن «مدن الملح» أخضعتك لجوانب معرفية علمية ...

- هذا صحيح ،لكنها ليست تاريخا أو مرجعا علميا ،وإنما هي في محصلتها النهائية رواية ،وبالتالي يظل عنصر الخيال مهما ورئيسيا.. حاولت في مدن الملح قراءة الماضي والحاضر في واقعنا، وتأثيرهما على المستقبل ،واعتبر أنها رواية لم تأت نتيجة عامل واحد بل عدة عوامل ،كما أنها لم تشمل موضوع واحد فقط هو النفط،وإنما شملت معه الصحراء.

*تتحدث الرواية عن ثنائية النفط والصحراء..لكن الملاحظ أن النفط هو الذي يتحمل كل السلبيات التي ترصدها وهو العالم الذي تنمو فيه شخصيات الرواية، أما الصحراء فلا تزال ضبابية في رصدها.

- أنا اجتهدت قدر الإمكان لتقديم عمل متكامل ،لكنه يظل البداية التي تحتاج إلى كم من الأعمال الأخرى لمعرفة انعكاسات وتأثير النفط والصحراء على واقعنا المعاصر ،وإذا كان موضوع البحر وجد اهتماما كبيرا في الحضارة الغربية ،وتصدر اهتمام العديد من المثقفين والفنانين والمبدعين،في التعبير عنه من جانب العنف والخطر والالتقاء مع الآخر ،فإن المنطقة العربية لديها الصحراء ،ولا تزال في موضوعها بكرا ،ورغم أنها تحتل ٨٠ ٪ من المساحة الإجمالية إلا أننا لا نزال نجهلها،ولا نغوص في أسرارها ،والشيء نفسه في موضوع النفط الذي قلب حياتنا ، وأضاع طبيعة المجتمع العربي ،وأتمني لو قام آخرون بالحديث عن الظاهرة ،وحبذا لو كانوا ممن ذهبوا إلى الخليج للعمل واحتكوا بعالم النفط بشكل أو بآخر،ولا تقف دعوتي لتناول الموضوع على القالب الروائي وفقط ،وإنما أدعو الأشكال الإبداعية الأخرى إلى تناوله ،حتى لو كان الحديث عنه مجرد رحلة ،فالمنطقة لا تزال بكرا وتحتاج إلى تعريف تمهيدا لإدخالها ضمن النسيج العام للأدب لمعرفة احتمالات المستقبل .

*تقديرك للنفط ومساوئه.. هل جاء نتيجة الأنماط الحضارية التي سادت بسببه ، أم نتيجة نخبة حاكمة لم تتصرف فيه بالشكل الذي ينبغي ،أم أنك بخيال واستشراف الروائي توقعت كل النتائج السلبية التي وقعت بسببه؟

- النفط مادة من الطبيعة ،لكن طريقة استخدامه والعقل الذي يستخدمه هو الذي يحدد النتائج ،وأنا لست نبيا و لا زرقاء اليمامة ،لكن إجمالا رأيت كيف يتم التعامل مع هذه المادة في المنطقة والانتقال به من حالة إلى حالة ،وتوقفت عند حالة معينة في «مدن الملح»،أتمني أن يأتي من يكمل بعدي ،ويقدم إضافة نوعية من خلال أعمال إبداعية ،ترصد ما تركه النفط من آثار سلبية في مرحلته الراهنة

* لكننا نجد آثارا ايجابية للنفط كاستثمار عوائده في إقامة بنية تحتية قوية في دول

الخليج ؟

- نعم لكن السلبيات فادحة .

*ماذا عن هذه السلبيات؟

كثيرة وأبرزها الصحافة الصفراء المأجورة ،وتخريب المثقفين بشراء ذممهم ليس بغرض الانتماء ،وإنما بغرض الانتصار لقرارات معينة ،يصاحبها لغة سائدة عبارة عن هجين من العنصرية في نظرة أصحاب النفط للآخرين خاصة العرب المحرومين .

وبدلا من أن يكون هناك أمانة عربية من أجل استقرار المنطقة بامتصاص فائض العمالة المحرومة ،نري أن العربي في البلاد المسماة ب«أقطار العسر »أسهل عليه الذهاب إلى بلد غربي من الذهاب إلى دولة خليجية نفطية ،وتشمل الآثار السلبية سيادة العقل القبلي وتغييب دور الدولة كمؤسسات ،وهو ما يؤدي إلى سيادة أنماط لعلاقات اجتماعية تم تجاوزها بمراحل في الدول الأخرى.

دعني أقول أن دولا مثل مصر وسوريا ولبنان كانت تؤثر على الجزيرة العربية ، حتى أصبح العكس هو السائد ، بدءا من طراز اللبس وانتهاء بالنمط الاستهلاكي ، ولكل هذه الأسباب أرى أن النفط لعنة من لعنات الله على المنطقة بدلا من أن يكون وسيلة من وسائل تقدمها .

*هل كان في تخطيطك أن تكتب «مدن الملح »في خمسة أجزاء؟

أنا لا أشابه أديب مصر الراحل يوسف السباعي الذي كان يحدد سلفا عدد صفحات الرواية وعدد الفصول ،وحتي عدد صفحات كل فصل ،فطريقة العمل عندي مختلفة تماما بمعني أنني أبدأ بتصور عام حول الموضوع ،دون أن يكون عندي قدرة على تحديد ماذا سيبلغ.

وأثناء العمل تبرز عوامل وعناصر كثيرة تفرض وجودها ،وتعطي احتمالات جديدة للتغيير ،ربما لا يكون في المسار الرئيسي،ولكن في علامات وحالات أخري ،

وذكرت أكثر من مرة أنني عندما أبدأ كتابة الرواية أكون مثل القبطان على ظهر السفينة ،أعرف الاتجاه العام ،ولا أعرف ماذا سيصادفني في الرحلة من احتمالات ، وربما أجد عناصر عديدة تأخذ الرحلة إلى مسارات أخري،أو تؤدي إلى أشياء إضافية لم تكن في البال.

وعندما بدأت كتابة «مدن الملح »كان تصوري أنني سأكتب رواية طويلة وكبيرة بحجم أهمية الموضوع الذي ستتناوله من الناحية الجغرافية والزمنية ،ولم أقدر أبد أن العمل سيصل إلى هذا الحد ،والآن وبعد كل هذه السنوات من الانتهاء من العمل يسألني بعض القراء متي ستكتب الجزء السادس؟

*هل هناك تفكير في ذلك بالفعل؟

- بيني وبين نفسي أنا انتهيت من الرواية تماما بالحالة التي بين يدي القراء ، ولكن ربما يأتي غيري ليعالج الموضوع من زاوية جديدة ،وبصيغة مختلفة ،فالموضوع غني يستوجب كتابات أخري، ومعالجات من منظور مختلف ،وهذا حق لأي مبدع ، وهناك موضوعات تحدد الملامح الأولية لأي عمل ،وكنت أفترض في البداية أن موضوع الرواية يحتمل ثلاثة أجزاء ،لكنها زادت إلى أربعة ثم خمسة ، وفي الإجمال أري أن من يقرأ «مدن الملح »هو قارئ شجاع ،نظرا لكمها الكبير،الذي يحتاج إلى فنية خاصة ،وصبر كبير في القراءة

*عبد الرحمن منيف « أنت ابن المنافي»،خرجت منفيا من قطر عربي إلى آخر وإلى دول أوربية أيضا ،فماذا أضافت هذه التجربة القاسية إليك؟

- طبيعة الحياة التي يعيشها المبدع تنعكس على عمله ،والرحيل عبارة عن زاد إضافي للمبدع لكنه كان إجباريا لي ،وما كان أبدا خياري المفضل ، فالأحوال السياسية التي عاشتها المنطقة العربية في النصف الثاني من القرن العشرين أجبرتني على الرحيل من عاصمة إلى أخرى ، ومن مدينة إلى أخري،ورب ضارة نافعة

فنرصة الانتقال من مكان إلى آخر في الوطن وخارجه ساعدتني على الاحتكاك ، والتفاعل مع عدد كبير من التجارب ، والحالات الثقافية الناضجة في بعض البلدان،وانتقالي المتعذر بين بلدان المنطقة العربية وخارجها من الجزيرة العربية إلى العراق ولبنان ،وبعض بلدان المغرب العربي فأوربا زودتني برؤية الجديد في الفنون ، خاصة الفن التشكيلي والموسيقي ، وكانت هذه التجارب جديدة بالنسبة لي ،وتركت أثارها الإيجابية على كتاباتي فيما بعد.

*مع التسليم بقسوة الرحيل ،لكن أي مراحله عادت عليك بالفائدة أكثر ؟

- الفترة من ١٩٥٦ الى ١٩٥٨ كانت أخصب فترات حياتي بقدر ما كانت الأخصب في تاريخ مصر والمنطقة العربية ككل،شاهدنا تأميم قناة السويس في ٥٦ وإعلان الوحدة بين مصر وسوريا في ٥٨ ،يالها من أيام تلك التي أعلن فيها عبد الناصر قرار التأميم،وأعلن فيها قرار الوحدة،صدقني كنا نشعر أن كل أحلامنا لدينا القدرة على تحقيقها،وأن قرارنا أصبح في أيدينا بعض طول غياب ،وأنا عشت خلال هذه الفترة في مصر طالبا في الجامعات المصرية ،وشاهدت نهوض المسرح المصري ، وانتعاش الحركة الثقافية وتوسعها،ولكل ذلك أعتبر هذه الفترة هي الأخصب في حياتي .

*في المقابل ..المؤكد أن هناك مرارات تذكرها..

- هذا مجاله واسع ،لكن ما يبقي قوله أن ترحيلي كان يتم بمرارة ،ففي مرات عديدة كان قرار ترحيلي يتم وأنا بعيد عن مكتبتي ،وأغراضي الشخصية التي كانت مصادر إضافية لعملي الإبداعي ،وفي مرات أخري كان يتم ترحيلي بسرعة ودون إكمال فكرة أساسية كنت قد بدأتها ووضعتها على الورق ، فضاعت الفكرة وضاع الورق ،لكن من خلال الرحيل اكتشفت أن الفارق بين مكان وآخر في المنطقة العربية هو فارق نسبي وليس نوعي .

* هذا الفارق النسبي بين مكان وآخر في المنطقة العربية،هل كان الدافع لأن

نري الأماكن في معظم أعمالك الروائية عامة وغير محددة باسم معين؟

– هذه ملاحظة صحيحة تماما فأنا حاولت قدر الإمكان أن تشمل روايتي على خصوصية للمكان تجمع في طياتها طبيعة أقرب إلى الشمول ،فالسجن السياسي الموجود في القاهرة لا يختلف عما هو موجود في عدن مثلا أو أي بقعة عربية أخري ، وعندما تناولت ذلك لم أعف أحدا من المسئولية عنه ،ومن العار الذي يلاحق بنائيه وجلاديه ،وأعطيت الموضوع في بعض الأحيان تسميات واسعة ليس هروبا من تحديد المكان،وإنما لأن الظاهرة شاملة وعامة ،فما ينطبق على العراق ينطبق على دول عربية أخري ،وما تجده في المغرب تجده في اليمن ،والرحيل بهذا المعني المجازي له فوائد ،لكن يبقي لي كإنسان أنني عشت معلقا في الهواء بين السماء والأرض ، وجذري غير ثابت وغير قوي،لا أستطيع ضمان البقاء على أرض ثابتة .

*أنت تدفع ثمن اختياراتك وصلابة التمسك بالمبدأ...

– هذا عزائي ،فأنا بالفعل أدفع ثمن اختياراتي السياسية التي ذهبت إليها بإرادتي ، وهذه واحدة من جملة الضرائب التي يؤديها أو يدفعها المثقف في وطنه الذي يضيق به أحيانا

*اختيارات الإنسان ربما تشكلها عوامل تبدأ من مراحل تكوينه الأولي ،فإلي أي مدي أثر ذلك في تشكيل وعيك الفكري الذي دفعت ضريبته ؟

– البيئة، خاصة في سنواتي الأولي متداخلة ومتحركة ،فعندما أمم عبد الناصر قناة السويس،ووقع العدوان الثلاثي لم تقف المنطقة العربية موقف المتفرج ،بل اهتزت كل بقعة فيها ،وكان دافع المشاركة لديها عاليا،وحدث هذا أيضا مع ثورة الجزائر التي أثارت الحماس في وجدان كل عربي ،وأذكر أنني وقتئذ كنت في القاهرة وشاهدت كيف أسهمت الثورة في ميلاد مبدعين أذكر منهم الشاعر أحمد عبد المعطي حجازي

*أين البيئة الصغيرة في هذه الرحلة؟

– البيئة الصغيرة قد تحدث الأثر في بعض الأحيان ،لكنها تذوب في البيئة العامة حين يحكم إطارها كم كبير من العوامل والأحداث الهائلة بحجم ٥٦ وثورة الجزائر ، والوحدة بين مصر وسوريا ،وغير ذلك من الأحداث العظيمة التي مرت بها المنطقة ، وأذكر أن العدوان الثلاثي سجل حالة تاريخية نادرة من تداخل وتناسق البيئة العربية في كل أبعادها الشعبية والسياسية والاقتصادية ،كان شاهدها نسف المناضلين في سوريا لأنابيب البترول المتجهة لأسواق الغرب من الأراضي السورية ، تضامنا مع نضال الشعب المصري ، هذا بخلاف اشتعال الأحداث في كل مكان في المنطقة العربية وحتى خارجها .

ولكل هذه الأبعاد أري أن البيئة تسمية رمزية أكثر منها تحديدا لجغرافيا معينة ، خاصة أن هذه الفترة وما بعدها أكدت التفاعل والاشتباك والتواصل في واقعنا العربي ،ومن منا لم تؤثر فيه هزيمة يونية حزيران ١٩٦٧ ،وتعامل معها كواحدة من المحطات الكبرى في التاريخ العربي التي أثرت فيه بقدر ما أثرت في بيئته

*هذه الرؤية الواسعة لمفهوم البيئة لا تلغي عندي الرغبة في معرفة من أين جئت ، وهل أنت امتداد لأحد في العائلة؟

– في قصيدة مهمة للشاعر إيليا أبو ماضي اسمها «لست أدري»،سئل :من أين أتيت ؟فأجاب :لست أدري.

طبيعي أنا أذكر من أين أتيت ،لكن بوجه الإجمال أقول أنا امتداد لتراث عائلي في هذا المجال ،أنا امتداد لقراءاتي وترحالي، وتجاربي بالدرجة الأولي ،وكل هذا لا يلغي الكم الكبير من الثقافة الشفاهية التي انتقلت إلى ،والي كل جيلي تقريبا من الأسرة ومن الآخرين ،ثقافة اعتمدت على التراث الذي له طابع بدائي نسبيا لكنه كان غنيا ومهما، باعتباره تحويرا من التراث المكتوب ،وسمعت منه الزير سالم ، وألف ليلة وليلة ، وعرفت وحفظت هذا التراث بالتحوير الذي حمل إضافات إليه

طبقا لعوامل البيئة الخاصة،واعتبر أن الإرث العائلي في التأثير على تكويني رغم أنه وارد لكنه يظل محدودا بالمقارنة بالإرث الذي حملته من محيطي ،ومن الناس الذين التقيت بهم ،ومن الأماكن التي عشت فيها ،وشاهدتها وتعاملت معها عن قرب.

الثالوث المقدس

*أنتقل معك إلى أفق آخر في حوارنا ويتعلق بوضع الرواية العربية الآن ،فهل هي تعيش في أفضل حالاتها ؟

الإجابة عن هذا السؤال يتصدى لها ناقد متخصص ،لكن بوجه الإجمال الرواية العربية في وضع جيد ،وعندها آفاق أرحب وأهم في المستقبل ،بعد أن صار في عالمها تراكمات وأسماء وعدد كبير من الروائيين ،والأهم أن للرواية الآن جمهورا واسعا من القراء ،وشكل كل هذا مناخا مهما وغنيا ،يساعدها على التدفق والنمو .

وفي تقديري أن الرواية الآن هي أفضل الأدوات التي تضع يدها على المشاكل الأساسية للمجتمع بما فيه همومه وأحلامه الكبيرة ،وتستطيع تقديم إجابات إيجابية ، وتحتوي في الوقت نفسه على طيف واسع من تعدد الأسانيد والافتراضات ،وأنا متفائل ،لكن يبقي عتابي على أن الرواية العربية أمامها الإمكانية التي تساعدها في تشكيل إضافة مهمة للرواية العالمية ،وأن يكون لها مذاق مختلف ومتميز ،ويحتاج هذا إلى اجتهاد أوسع وأكبر ،ونوع من الصدور التي تتحمل ،كما يجب ألا تحكم بقسوة على التجارب الروائية بالسلب أو الإيجاب ،وتجعل تراكمها أكبر، والاجتهاد في موضوعاتها أوسع ،وينسحب ذلك إلى أساليبها الفنية .

نحن نحتاج نوعا من الروائيين يتصدى بجرأة لموضوعات يخاف آخرون من التصدي لها،وفي مقدمة ذلك الثالوث المقدس المتمثل في ،السياسة ليس بمفهومها المباشر ،والجنس بمعناه الراقي ،والدين بمفهومه الرحب ،على أن يكون كل ذلك في إطار منظومة تسهم في كشف نواقص المجتمع.

*إلى أي مدي أعطت الأجيال الروائية سمات محددة للرواية العربية ،وهل بلغت في ذلك الحد الذي يمكن معه أن نطبع الرواية بطابع الجيل الذي أنتجها؟

- هذا التقسيم يحتوي على نوع من التعسف والقسوة ،فمثلا هناك روائي يكتب في سن الأربعين ،وآخر يكتب في سن العشرين ،والفرق بين الاثنين جيل أو جيلان ، وبرغم ذلك تجمعهما حساسية واحدة ،وفي الإجمال لو افترضنا أن هناك جيلا مؤسسا للرواية ثم أجيالا لاحقة له سوف نجد أن شيخ الرواية العربية نجيب محفوظ في شيخوخته وتقدم سنه ، ظل يقول أشياء مهمة في الرواية شكت إضافة حقيقية لعالمها.

كما أن الأجيال التي جاءت من بعده أحدثت نوعا من التراكم والآفاق المرئية ، فيما يعني أن التفاعل مستمر ويتداخل بين كل الأجيال ،بحيث أننا نستطيع القول: إن تقسيم الرواية بمفهوم الجيل هو نوع من التمييز فقط ،وفي رأيي أن نجعل هذه القضية مفتوحة دون وضع حد قاطع لها

*قصدت بالتقسيم الجيلي ارتباط الرواية بالمراحل والأحداث التاريخية التي إندمج فيها الروائيون كثورتي ١٩و٥٢ في مصر،ومرحلة الانهيار العربي التي تجسدت في أحداث كحصار بيروت عام ١٩٨٢

- يمكن انطباق هذا التقسيم على الشعر أكثر من الرواية ،وربما وكما ذكرت في سؤالك أن التقسيم جاء نتيجة التأثر بمراحل تاريخية بعينها فنجيب محفوظ ابن العشرينات من القرن العشرين لم يخفي تأثره بثورة ١٩ وتحدث عنها كما تحدث أيضا بنفس القدر عن ثورة ٥٢ ،كما نجد روايات مثل «مالك الحزين »تأليف إبراهيم أصلان،«والحب في المنفي »تأليف بهاء طاهر وغيرهما من الروايات لا تجمع في داخلهم الفصل الحاد بين جيل وآخر

ومن مظاهر الرواية الآن أنها تأتي بما يقوله التاريخ ،كما فعل جمال الغيطاني في رواية «الزيني بركات»،وهذه النوعية من الروايات التي أطلق عليها البعض اسم

«الرواية التاريخية ،لا ينفع معها التقسيم الجيلي ،فهي تتناول حقب تاريخية تري فيها أحداثا يمكن إسقاطها على الحاضر ،وتعطي دلالات مهمة ،وتوفر للرواية فسحة أكبر من الموضوعات التي يمكن تناولها .

*قضية التاريخ في الرواية ،أو«الرواية التاريخية»قد يراها البعض نوعا من الانسحاب من الحاضر ،أو استغراق في التراث الذي له معطيات مختلفة عن معطيات الحاضر.

– في المنعطفات الكبرى يحدث غالبا نوع من المراجعات الشاملة ،للبحث في أسباب الانهيار والنهوض ،واعتبر مثلا أن جذور تطورات القرن العشرين ، موجودة في القرن التاسع عشر ،ولهذا جاءت ضرورة العودة إلى الوراء لاكتشاف ومعرفة المسارات ، ووضع اليد بدقة على أفضل ما في المنعطفات التاريخية ،أضف إلى ذلك أن بعض الروائيين عادوا إلى فترات تاريخية أقدم على أساس أن الجدل حولها فيه فائدة للحاضر لفهم طبيعة الأماكن والبشر،و أنا أكتب الآن رواية عن القرن الـ١٩(أرض السواد)، ورجعت إلى الكثير من المراجع والدراسات التي تناولته حتى أستوعب مثلا ما يقوله البدو :«ذلك الغيم جاب هذا المطر»،فالعوامل التي شكلت نهايات القرن ال١٩هي التي أعطتنا نتائج القرن العشرين من ناحية التقسيمات السياسية ،وأنظمة الحكم ، وسيادة البداوة ،والعلاقات التي حكمت وتركت أثرها حتى الآن .

*وأنت تتصدي لكتابة رواية بهذا الشكل.. هل تتوغل في قراءة التاريخ وفقا لوجهة نظر معينة تعينك على الالتقاط؟

– أنا لي رؤية خاصة للتاريخ تبدأ من أنه حدث تلفيق كبير تم في تناوله ، وبخاصة في التاريخ الرسمي ،ولذلك أري أنه لابد من العودة إلى ما أسميه بـ«التاريخ الموازي»،وهذا يقودنا إلى ضرورة البحث في سجلات تجمع حقيقة وأصول الحكايات ،ونوع المدن التي كانت موجودة ،وحتى نوع الأزياء التي سادت ،

والتلفيق الذي حدث يمكن إصلاحه من خلال الكتابة غير الرسمية للبعض .

وأنا لا أسلم بسهولة بالأشياء التي تبدو مسلمات لدي الغير ،ولهذا تخضع الأحداث التاريخية عندي للتدقيق والقراءات المختلفة والمتناقضة ،ويقودني هذا إلى القول بأننا نحتاج إلى مراجعة وتصنيف التاريخ من جديد ،والذي وصلت درجة الاستهانة به حد استخدام الوقائع ونقيضها ،واستخدام دلالات منها تتناقض مع دلالتها الأصلية،ويظل موضوع التاريخ شائكا وحمال أوجه لدي البعض ،بمعني أنك تستطيع استخراج الجواهر والكنوز منه ،كما تستخرج منه في أحوال أخري أشياء تخدم حالة راهنة بمعني تطويعها لصالح أغراض خبيثة ،وأنا ضد هذا النهج ، وأعود إلى التاريخ برؤية اكتشف من خلالها عيون الحقيقة ،والرغبة في إيجاد تفسير مادي ملموس وصحيح ، وعلي سبيل المثال أنا مقتنع إلى حد بعيد بقراءة على الوردي للمجتمع العراقي والذي يذهب في إجماله إلى صراع البداوة والحضارة ، والازدواج في الشخصية العراقية في مرحلة معينة ،وأيضا الموقع الجغرافي ،وطبيعة النفسية التي تكونت للبشر وحكمت سلوكهم .

*أستاذ عبد الرحمن إلى أين يقودنا هذا التزييف؟

إلى بداوة تتمكن منا أكثر ،وإذا لم نراها الآن سنستمر في خطأ فهم التصرفات الراهنة أنا أخشى من البداوة الجديدة التي تزحف على المنطقة ،صحيح نحن نلبس رباطات العنق ،وملابس حديثة تفوق في أناقتها أحيانا أزياء فرنسا ،لكن نحمل في داخلنا بداوة كبيرة في السلوك والعلاقات الاجتماعية والنظرة للواقع ،وأخيرا القرار السياسي .

ملحوظة :

كان نجيب محفوظ على قيد الحياة أثناء التسجيل ثم نشر هذا الحوار .. توفي نجيب عام ٢٠٠٦ .

عبد الرحمن منيف في اللقاء مع سعيد الشحات ، في منزل منيف بضاحية المزا في العاصمة السورية دمشق

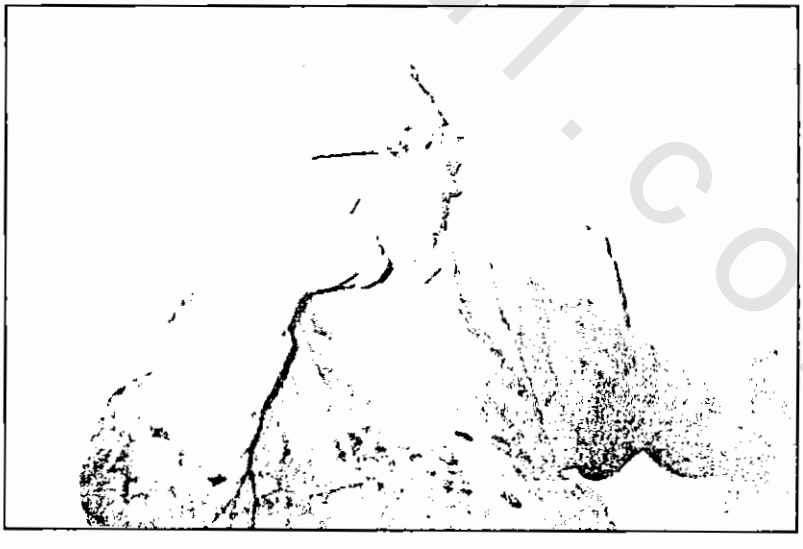

عبد الرحمن منيف متابعا أسئلة سعيد الشحات